ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان ووجوب التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية

تأليف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فهذه ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان ووجوب التزام الشريعة الإسلامية.

الإخلاص

هو في اللغة: تخليص الشيء وتجريده من غيره، فالشيء يسمى خالصاً إذا صفا عن شوبه وخلص عنه، ويسمى الفعل المصفى المخلص من الشوائب إخلاصاً، ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، فاللبن الخالص ما سلم وصفا من الدم والفرث ومن كل ما يشوبه ويكدر صفاءه، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وفي الاصطلاح: تصفية ما يراد به ثواب الله وتجريده من كل شائبة تكدر صفاءه وخلوصه له سبحانه.

منزلته

الإخلاص هو أساس النجاح والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة فهو للعمل بمنزلة الأساس للبنيان وبمنزلة الروح

للجسد فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكن من الانتفاع منه إلَّا بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل، فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح، فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص وقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٠٩].

ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه جعل وجودها كعدمها فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، والإخلاص أحد الركنين العظيمين اللذين انبنى عليهما دين الإسلام وهما إخلاص العمل لله وحده وتجريد المتابعة للرسول ﷺ ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال: ((أخلصه وأصوبه))، قيل: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ قال: ((إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً

ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة)). وقال شارح الطحاوية: ((توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلَّا بهما: توحيد المرسل سبحانه، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، فيوحده ﷺ بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما يوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

محله

ومحل الإخلاص القلب، فهو حصنه الذي يقطن فيه فمتى كان صالحاً عامراً بسكناه وحده تبع ذلك صلاح الجوارح، ومتى كان خراباً سكن فيه الرياء وملاحظة الناس وكسب ودهم وتحصيل ثنائهم والطمع فيما عندهم ويتبع ذلك سعي الجوارح لتحصيل هذه الأغراض الدنية، وليس أدل على ذلك وأوضح بياناً من قوله ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)). وقد أوضح ﷺ هذا المعنى وبين تبعية الجوارح لما يقوم بالقلب بقوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن

كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

والإخلاص مطلوب في الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي كل ما شرعه الله من قول أو فعل، فيقوم الإنسان بتأدية ما شرع الله له والباعث له عليه امتثال أمر الله خوفاً من عقابه وطمعاً فيما لديه من الأجر والثواب.

والإخلاص مطلوب أيضاً فيما يلتزمه الإنسان من الأعمال فهو مطلوب من العامل ومن المستشار والمؤتمن والموظف ومن المعلم والمتعلم، وقد بين النبي ﷺ ما يترتب على طلب العلم مع الإخلاص فيه من النتائج الحميدة وما يترتب على فقدِ الإخلاص فيه من العواقب الوخيمة بقوله ﷺ: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن فيك. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)) الحديث.

ويروى أنَّ معاوية ﷺ لما بلغه هذا الحديث بكى حتى أغمي عليه فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله، قال الله عز وجل : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود:١٥]، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: ((لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء أو لتجادلوا به الفقهاء أو لتصرفوا وجهة الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذهب ما سواه)).

الحث عليه وبيان فضله

ولما كان الإخلاص بهذه المنزلة التي تقدم وصفها جاء الشرع المطهر في الحث عليه والترغيب فيه وبيان فضله في آيات كثيرة وأحاديث عديدة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦] الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤].

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ قوله ﷺ لأصحابه في غزوة تبوك: ((إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلَّا كانوا معكم حبسهم المرض))، وفي رواية: ((إلَّا شركوكم في الأجر)) متفق عليه، واللفظ

لمسلم، ومنها قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: ((إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك)) متفق عليه، ومنها قوله ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)) رواه مسلم، ومنها قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...))، جواباً لمن سأل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ وقد أشار النبي ﷺ إلى ما يكتسبه الإنسان في الدنيا بسبب الإخلاص إلى جانب ما أعده الله له في الآخرة من المثوبة بما ذكره ﷺ من قصة الثلاثة الذين أووا إلى غار للمبيت فيه فانحدرت صخرة وسدت عليهم باب الغار ففرج الله عنهم ذلك بسبب إخلاصهم الأعمال الصالحة له سبحانه وتعالى.

ما يضاد الإخلاص وبم تحصل السلامة منه

وكما أن الإخلاص تصفية الشيء مما يشوبه فإذا لم تحصل تصفيته انتفى الإخلاص.

فإذا قام الإنسان بعمل محمود والباعث له عليه ابتغاء وجه الله سمي مخلصاً وسمي عمله إخلاصاً، فإذا فقد ذلك الباعث على العمل أو وجد ولكنه مشوب بباعث آخر كالرياء انتفت التسمية، فإخلاص العمل لله وحده ينافيه ويقابله أن يحل في القلب قصد المخلوقين التماساً لحمدهم وثنائهم وطمعاً فيما عندهم، ولما كان ذلك ينافي الإخلاص جاءت الشريعة الإسلامية بذم الرياء ومقت المرائين فقد قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧]، وأخبر أن الرياء من صفات المنافقين فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)).

ومن ابتلاه الله بهذا الداء العضال فعليه أن يسعى في تحصيل الأدوية النافعة التي تستأصل وتقضي عليه، ومن أبرزها شيئان:

أحدهما: أن يزهد فيما ينتظر من الناس من الثناء والعطاء.

و**الثاني**: أن يحمل نفسه على إخفاء الأعمال، وقد أوضح الأول منهما ابن القيم في الفوائد (ص ١٤٨) فقال: ((لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلَّا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلَّا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلَّا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمي شين. فقال: ((ذلك الله عز وجل))، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه ولا يشينك ذمه، وارغب

في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلَّا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠]، وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤])) انتهى كلام ابن القيم رحمه الله، وقد أشار النبي ﷺ إلى إخفاء العبادة ابتعاداً عن الرياء بقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله: ((ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه...)).

فالحاصل أن العمل مذموم إذا كان الباعث عليه التماس حمد الناس وثنائهم والطمع فيما عندهم، أما إذا عمل الإنسان العمل خالصاً لله ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بسبب ذلك العمل فارتاح لذلك واستبشر به لم يضره ولم ينقص من أجره؛ بدليل أنه ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل

من الخير ويحمده الناس عليه قال: ((تلك عاجل بشرى المؤمن)) رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه(١).

الإحسان

الإحسان في اللغة: ضد الإساءة، وهو مصدر أحسن إذا أتى بما هو حسن.

وفي الاصطلاح: الإتيان بالمطلوب شرعاً، على وجه حسن، وقد أوضح ﷺ الإحسان في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإسلام والإيمان، فأجابه عن كل منهما، وكان جوابه عندما سأله عن الإحسان أن قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، فقد بين ﷺ في هذا الحديث الذي رواه مسلم معنى الإحسان، وهو أن يفعل الإنسان ما تعبده الله به كأنه واقف بين يدي الله وذلك يستلزم تمام الخشية والإنابة إليه سبحانه ويستلزم الإتيان بالعبادة على وفق الخطة التي رسمها رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد ضمن ﷺ جوابه عن الإحسان بيان السبب الحافز على الإحسان لمن لم يبلغ هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، ألا

وهو تذكير فاعل العبادة بأن الله مطلع عليه لا يخفى عليه شيء من أفعاله وسيجازيه على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا شك أن العاقل إذا تذكر أن الله رقيب عليه أحسن عمله رغبة فيما عند الله من الثواب للمحسنين وخوفاً من العقاب الذي أعده للمسيئين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

---

(١) كلمة نشرت في العدد الثاني من السنة الأولى لمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الصادر في شهر رجب عام ١٣٨٨هـ.

فضل الإحسان

ولمزيد عناية الإسلام بالإحسان وعظيم منزلته، نوه سبحانه بفضله وأخبر في كتابه العزيز أنه يحب المحسنين وأنه معهم وكفى بذلك فضلاً وشرفاً فقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

[النحل:١٢٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

جزاء المحسنين

ومن رحمة الله وفضله أن جعل الجزاء من جنس العمل، ومن ذلك أنه جعل ثواب الإحسان إحساناً كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فمن أحسن عمله أحسن الله جزاءه، وقد أوضح سبحانه في كتابه العزيز جزاء المحسنين وأنه أعظم جزاء وأكمله، فقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وهذه الآية فسرها رسول الله ﷺ بما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه بأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل ، ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك العمل الذي هو الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه جزاهم على ذلك العمل النظر إليه عياناً في الآخرة، وعلى العكس من ذلك الكفار الذين طبع على قلوبهم فلم تكن محلاً لخشيته ومراقبته في الدنيا فعاقبهم الله على ذلك بأن

حجبهم عن رؤيته في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وكما أن جزاء الذين أحسنوا الحسنى فإن عاقبة الذين أساءوا السوأى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم:١٠]، ومما ذكره الله في جزاء المحسنين قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف:٣٠] الآية، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [النحل:٣٠-٣١] الآية، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] الآية، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢]، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

طرق الإحسان

والإحسان مطلوب في العبادات والمعاملات، فأي عبادة افترضها الله على العبد فإن عليه أن يأتي بها على الوجه الذي رضيه سبحانه من إخلاصها له وموافقتها لشريعة نبيه ﷺ، وكما أن الإنسان يحب لنفسه أن يعامله غيره معاملة حسنة فإن عليه أن يحسن إلى غيره ويعامله بمثل ما يحب أن يعامل به هو، وذلك بسلوك طرق الإحسان التي نتعرض لبعضها فيما يلي على سبيل الاختصار:

١. الإحسان بالنفع البدني:

وذلك بأن يجود ببذل ما يستطيعه من القوة البدنية في تحصيل المصالح ودفع المفاسد، فيمنع الظالم من الظلم ويميط الأذى عن الطريق مثلاً، وهذه الطريق هي التي عناها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث المتفق عليه: ((كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع

عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)).

٢ـ الإحسان بالمال:

ومن وسع الله عليه الرزق وآتاه المال فإن عليه أن يشكر الله على ذلك بصرفه في الطرق التي شرعها الله، فيقضي الحاجة ويواسي المنكوب ويفك الأسير ويقري الضيف ويطعم الجائع تحقيقاً لقول الله سبحانه: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

٣ـ الإحسان بالجاه:

وإذا لم يتمكن المسلم من قضاء حاجة أخيه وإيصال النفع إليه فعليه أن يكون عوناً له في سبيل تحصيلها وذلك بالسعي معه لدى من يستطيع ذلك اقتداء برسول الله ﷺ وامتثالا لأمره فقد شفع ﷺ لمغيث لدى زوجه بريرة رضي الله عنهما وأمر أصحابه بالشفاعة فقال: ((اشفعوا تؤجروا)) متفق عليه.

٤ـ الإحسان بالعلم:

وهذه الطريق مع التي تليها أعظم الطرق وأتمها نفعاً؛ لأن هذا الإحسان يؤدي إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وبه يعبد الله على بصيرة، فمن يسر الله له أسباب تحصيل العلم وظفر بشيء منه كانت مسؤوليته عظيمة ولزمه القيام بما يجب للعلم من تعليم الجاهل وإرشاد الحيران وإفتاء السائل وغير ذلك من المنافع التي تتعدى إلى الغير.

٥. الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولم تكن أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس إلَّا بسلوكها تلك الطريق كما أن بني إسرائيل لم يلعن من لعن منهم على لسان أنبيائهم إلَّا لتخليهم عن ذلك الواجب وعدم اكتراثهم بارتكاب المنكرات، قال الله تعالى في حق هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال في حق بني إسرائيل:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٨]، ثم بين سبب اللعن بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

ولا يحصل المطلوب ويتم النفع إلَّا إذا كان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مؤتمراً بما يأمر به منتهياً عما ينهى عنه وإلا كان أمره ونهيه وبالاً عليه لقول الله تعالى:﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣]، والإحسان إلى الناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لابد أن يكون عن علم لأن الجاهل قد يأمر بما هو منكر وقد ينهى عما هو معروف ولابد أن يجمع إلى العلم الحكمة ويصبر على ما أصابه، ومن الأدلة على هذه الأمور الثلاثة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]، وقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧]، وقد جعل النبي ﷺ إنكار المنكر على ثلاث مراتب، إن لم تحصل المرتبتان الأوليان فلا أقل من الثالثة التي هي أضعف الإيمان، كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))(١).

وجوب التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية

الحمد لله الذي ارتضى الإسلام ديناً لهذه الأمة فأكمله لها وأتم عليها به النعمة، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فموضوع حديثي: لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية، وسيدور الكلام فيه باختصار حول النقاط التالية:

مَن هو المسلم؟

الشريعة الإسلامية وما بنيت عليه.

كمال الشريعة الإسلامية وشمولها وخلودها.

التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية لازم لابد منه.

النتائج الطيبة للالتزام بالشريعة الإسلامية، والآثار السيئة في التخلي عن ذلك.

(١) كلمة نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٩هـ.

مَن هو المسلم؟

المسلم اسم فاعل من أسلم بمعنى: أذعن وانقاد لربه وخالقه سبحانه وتعالى، والإسلام بهذا المعنى شامل خضوع جميع المخلوقات له سبحانه، كما يندرج تحته رسالات رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

[البقرة:١٣٠-١٣٣]، ويقول سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، ويقول سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فشرائع الله كلها تلتقي في إخلاص العبادة لله والخضوع له والاستسلام لشرعه والالتزام بأمره ونهيه وإن تنوعت الشرائع وتعددت المناهج، كما ورد في الحديث: ((نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد)).

وبعد بعثة رسوله الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم أصبح الإسلام علما على شريعته وعنواناً لأهل ملته ولا يسع أحداً من الجن والإنس الخروج عن دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ﷺ.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ

حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٩-٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ويقول سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقد فسر النبي ﷺ الإسلام في حديث جبريل المشهور بقوله: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا))، وأخبر ﷺ في حديث آخر أن الإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان.

وفسر ﷺ الإيمان في حديث جبرائيل بقوله: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره))، والإسلام والإيمان لفظان إذا جمع بينهما في الذكر عني بالإسلام الأعمال الظاهرة وبالإيمان الأعمال الباطنة كما في حديث جبريل هذا، فإذا ذكر كل واحد منهما منفرداً عن الآخر عني به الأعمال الظاهرة والباطنة معاً.

إذاً فالإسلام عقيدة وعمل، دين ودولة، ومنهج حياة في جميع المجالات، وقد عرف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الإسلام بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

فالمسلم حقاً هو الذي وفق للدخول في الإسلام أو النشأة عليه والتزم به قولاً وعملاً واعتقاداً حتى أتاه اليقين.

الشريعة الإسلامية وما بنيت عليه

الشريعة الإسلامية هي الوحي الذي أوحاه الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهي كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسنة رسوله ﷺ المفسرة للقرآن والمبينة له والدالة عليه، والكتاب والسنة متلازمان تلازم شهادة أن لا إله إلَّا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، وقد بُنِيت الشريعة الإسلامية على أصلين عظيمين وقاعدتين أساسيتين:

إحداهما: أن لا يعبد إلَّا الله وحده لا شريك له ولا يعبد معه غيره كائناً من كان، لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عمن عداهما، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ثانياً: أن لا يعبد الله إلَّا بما شرع الله في كتابه أو سنة رسوله ﷺ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]،

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: أي ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسوله ﷺ، وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، وفي لفظ مسلم ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ)) أي مردود على صاحبه، إذاً فلابد في العمل المقبول أن يكون خالصاً لله وعلى وفق ما جاء به رسوله ﷺ.

كمال الشريعة الإسلامية وشمولها وخلودها

لقد جمع الله للشريعة الإسلامية التي بعث بها رسوله وخليله محمداً ﷺ هذه الصفات صفة الكمال وصفة الشمول وصفة الخلود والبقاء.

أما صفة الكمال الخالية من أي نقص ومن الحاجة إلى أي زيادة فقد أثبتها سبحانه لشريعة الإسلام بقوله سبحانه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ((هذه من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلَّا ما أحله ولا حرام إلَّا ما حرمه ولا دين إلَّا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه.

وأما صفة الشمول والخلود: فإنه ما من شيء يقرب إلى الله إلَّا دلّ الرسول ﷺ أمته عليه وما من شر إلَّا حذرها منه، وقد

أخرج مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له: قد علّمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، قال: فقال: ((أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو عظم))، وهي صالحة لكل زمان ومكان وعامة للجن والإنس، ليست لقوم دون قوم، كما قال ﷺ في بيان خصائصه: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))، وقال ﷺ: ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار)) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال ﷺ: ((لو كان موسى حياً ما وسعه إلَّا اتباعي))، قال ذلك لما رأى مع أحد أصحابه أوراقاً من التوراة ينظر فيها، وإذا نزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان من السماء فإنه يحكم بشريعة الإسلام التي هي خاتمة الشرائع.

وقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة هود: ((ثم قال متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ

مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾: أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وفي صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلَّا دخل النار))، وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال:

((كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلَّا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلَّا دخل النار))، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلَّما سمعت رسول الله ﷺ وجدت له تصديقاً في القرآن

حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ قال: من الملل كلها)).

والحديث بالإسناد الذي ذكره ابن كثير ليس في صحيح مسلم، بل هو في السنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الأشراف.

التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية لازم لابد منه

وهذه الشريعة الكاملة الشاملة الخالدة التزام المسلم بأحكامها لازم لابد منه ولا خيار للمسلم فيه، وحاجة المسلم إلى السير طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية فوق كل حاجة وضرورته إلى ذلك فوق كل ضرورة؛ ليفوز برضى الله عز وجل وينجو من سخطه وأليم عقابه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الحشر:٧]، ويقول سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، ويقول سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، ويقول سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]، ويقول سبحانه:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥١-٥٢]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، ويقول سبحانه: ﴿فَلَا

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ويقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٧-٥٠]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ

أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٤].

النتائج الطيبة للالتزام بالشريعة الإسلامية والآثار السيئة في التخلي عن ذلك

إن التزام المسلمين بأحكام شرعهم الحنيف ودينهم القويم هو أساس فلاحهم وعنوان سعادتهم وسبب عزهم ونصرهم على أعدائهم، وهو مصدر أمنهم واستقرارهم، ومتى كانت حالهم بعكس ذلك حصل لهم الخسران والهلاك والذل والهوان، وقد أقسم الله بالعصر على خسارة كل إنسان إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ مليئان بالنصوص التي توضح هذه الحقيقة، وما سجله التاريخ من حصول العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه يصدق ذلك والواقع المشاهد المعاين أصدق برهان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل العمران:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف:١٠-١٢]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٥-٥٦].

هكذا قال الله في حق من أطاعه واتقاه والتزم شرعه وهداه، ولنستمع لما قاله في حق من زهد بالحق واستبدل الأدنى بالذي هو خير فأعرض عن ذكر الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: ((كل أمتي يدخلون الجنة إلَّا من أبى))، قيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ فقال: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)).

وقد حوى التاريخ في طياته أخبار انتصار المسلمين الصادقين على أعدائهم، وتغلبهم عليهم ليس لكثرة عددهم وعُددهم وإنما هو بسبب قوة إيمانهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، مع أخذهم بالأسباب التي أمرهم الله بها بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فظفروا بنصر الله لأنهم نصروه وجاهدوا في سبيله لتكون كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى فكان لهم ما أرادوا نصراً في الدنيا وسعادة في الآخرة وصدق الله إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، ويقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وإذا أراد العاقل في هذا العصر الذي نعيش فيه معرفة الشاهد من الواقع على صدق هذه الحقيقة، وهي أن المسلمين ينتصرون بسبب التزامهم شريعة الإسلام التي اختارها الله لهم، وينهزمون عند زهدهم فيها وبعدهم عن الأخذ بتعاليمها، لم يجد شاهداً أوضح من نتائج الحرب بين العرب واليهود التي تجلت فيها هذه الحقيقة بوضوح، ذلك أن العرب الذين

أعزهم الله بالإسلام لما لم يلتزموا في هذا العصر إلَّا من شاء الله منهم بشرع الله ولم يحكموا الوحي الذي نزل به جبريل من الله على رسوله محمد ﷺ واختاروا لأنفسهم التحاكم إلى قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان، لما لم يلتزموا بهذه الشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان ظفروا بالخذلان وصارت لهم الذلة أمام من كتب الله عليهم الذلة، وأي ذل وهوان أشد من هذا الذل والهوان، وسيسجل التاريخ ذلك للذين يأتون من بعد كما سجل ما جرى من خير وشر عن الذين مضوا من قبل، ولن يقوم للمسلمين قائمة إلَّا إذا رجعوا إلى الاعتصام بالله والالتزام بشريعة الله.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفق المسلمين جميعاً في كل مكان إلى ما فيه عزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين(١).

---

(١) محاضرة ألقيت في الجامعة الإسلامية ونشرت في مجلتها في عدد رمضان عام ١٣٩٨هـ.